عـــــوْدة

جمُد مكانه للحظة.. حيث كانت عيناه تتأملها، وتعيد التأمل لترتوى روحه العطشى بعد طول بعْد، ثم بخفّة ملفتة ، ربما نبعتْ من اللاشعور، أسند الفأس جانبا. تلاعب النسيم بأغصانها، اهتزت أوراقها فرحا. فتح ذراعيه القويّن كطائر أسطوري يحلق في السماوات. بجسد متعب هدّه الشوق وقلب يخفي انكسارات و أحزاناً احتضن الشجرة، قبلها، أسند رأسه إليها كطفل يطمع من أمه أن تغمره بحنانها.

عندما استوي جالسا مسندا ظهره لجذعها، احتوت عيناه حقلاً كبيراً يموج بالخضرة، لم يعد يملكه الآن لكنه لم يخسرْ ذكريات الطفولة إنها تتسارع إلى رأسه.. الضحكات البريئة المبعثرة في الفضاء، منافسة الطيور شقاوتها، الجري بين سنابل القمح .. سرعان ما ارتد إليه طرفه ندماً وحسرة عندما تناهى لأذنيه صوت ذلك العجوز:

.« الأرض لا تباع .. أنت نفسك عزيزة .. المدينة تستعبد الناس .. من يذهب اليها لا يعود.»

يتنفس الهواء صدق تلك الكلمات؛ لكنه مجبرُ يحصد ثمرة تجاهلها. حتى موظف الجمعية الزراعية الذي كان من أعز

أصدقائه أولاه ظهره.

يتذكر صعود قدميه للقطار، لأول مرة، اعترت جسده رعشة وانتابه إحساس مبهم

بالخوف من المجهول.. عندما لفظته المحطة الأخيرة شعر بأنه ذرة رمل وسط صحراء مترامية. ووجد نفسه يجلس القرفصاء، وسط حشد من الناس، ينضح منهم العرق قد تجمعوا بميدان السوق، ينتظرون أن يبيعوا جهدهم لمن يدفع لهم. كان خياله طوال جلوسه محلقا في فضاء بلدته الريفية التي هجرها كم يفتقدها.. هناك لا مجال أن تكون وحدك؛ في فرحٍ أو حزنٍ، إنْ كلّت يدك تأتيك مئات الأيدي، فالحب فقط يسري بين أهلها.

رمقت عيناه ثمار التوتْ بأعلى الشجرة.. كم هو مشتاق إليها، كانت الشمس ترسل أشعة الغروب الذهبية لتنفذ من بين الغيوم متخللة ثنايا الأوراق. لم تمر لحظة حتى امتدت يداه لبعضها؛ رقص قلبه فرحاً، وكان لطعمها مذاقْ خاص في فمه.